

سؤال الهوية من الوعي الجمعي إلى الذات الفردية الشاعرة النماذج الشعبية من الجنوب الجزائري

د. أحمد زغب

جامعة وادي سوف

ملخص

هل يختلف تصور مسألة الهوية في النصوص الشعبية التي أنتجها الوعي الجمعي، أو بالأحرى الشاعر الشفاهي الأكثر ارتباطا بالوعي الجمعي عنه لدى الشعراء النخبويين الذين ينطلقون من إبداع ذاتي فردي وينطلقون من رصيد خاص استقوه من ثقافتهم العالمية. البحث في مختلف النماذج، يكشف أن الاختلاف كان في مستوى التعبير أما في الجوهر فالتصور متشابه وردود الأفعال تجاه الموضوع تكاد تكون واحدة.

Resumé :

La conception de l'identité à partir des textes poétiques populaires produites par la conscience collective est ce que cela puisse être différente de celle qui est produite par l'élite qui s'exprime par le langage classique et réfère à son propre talent et sa pensée et savoir. L'enquête dévoile que la diversité se contente au niveau d'expression et ne la dépasse pas à l'essentiel des pensées

مقدمة :

عندما نتناول مسألة الهوية فإننا كثيرا ما لا نكثرث بالهوية الذاتية للفرد بمعزل عن مجتمعه، إنما تنصرف الأذهان مباشرة إلى الهوية الجماعية، فالمسألة تتعلق دوماً ف بهوية الفرد في الإطار الاجتماعي، والسبب في ذلك أن الفرد لا يكتسب هويته إلا من المجتمع الذي ينتمي إليه.

ونحن حين نتحدث عن الأدب، فإنه لا وجود لأدب يغرد في المطلق متحرر من تأثير المجتمع فيه فالشاعر الأديب الذي يدعي أنه يكتب دون أن يكثرث لمن يقرأ أو لا يقرأ ما كتب إنما يغالط نفسه فعالم الخيال المشترك بين

جميع البشر المتحرر من كل البيئات الاجتماعية لا وجود له لأن كل إنسان يستخدم للوصول إليه طريقا يمر حتما بوسطه وبيئته الاجتماعية والثقافية⁽¹⁾.

وسؤال الهوية أشد ما يطرح عند الأزمات الكبرى التي تتعرض لها المجتمعات ، فعند كل صدمة أو تصدع عميق أو صحوقة قومية بسبب الخوف من التلاشي والضياع مثلما حدث للمجتمع العربي في مواقف تاريخية متفاوتة ومثلما يحدث اليوم في عصر العولمة⁽²⁾.

وعندما نطرح الخطاب الأدبي الشفاهي في مقابل الخطاب الكتابي ، فإن هذه المقارنة تطرح تساؤلا في مدى مشروعيتها.، فهل تصح المقارنة بين خطاب شعبي وآخر نخبوي؟ فالأول متهم بالغوغائية والسذاجة والضحالة الفكرية والتقليد الجماعي مقابل الصفوة وسعة الفكر والإبداع والأصالة والتميز.

نتناول في هذا المقال العناصر التالية: جموعية الخطابات الشعرية الشفاهية، وذاتية النخبة الكتابية، التعبير عن الهوية عند الشفاهيين (في الشعر الشفاهي)، التعبير عن الهوية عند النخبة بصنفيها الإصلاحي والحدائي، ثم نقارن بين التعبير الجمعي الشفاهي وبين التعبير النخبوي الكتابي من حيث الشكل والمضمون، وأخيرا نصل إلى نتيجة هذه المقارنة.

التحليل:

1- جموعية الشفاهية وذاتية النخبة الكتابية:

يقرر كثير من الباحثين أن الخطاب الشفاهي شديد الاتصال بسياقه الاجتماعي مندمج في الجماعة منسلخ عن ذاتية الفرد ، لذا فهو أكثر حيوية

¹ - ينظر: سعد ضاوي مدخل إلى علم الاجتماع الأدب، دار الفكر العربي بيروت ص11

² - عبد الإله النبهان، الهوية القومية، "مجلة الموقف الأدبي"، مجلة أدبية شهرية تنتج عن إتحاد الكتاب العرب

وارتباطا بالواقع بينما الخطاب الكتابي مستقل عن سياقه، يعمق مركزية الذات ويميل إلى تجريد الوقائع من سياقها الإنساني والاجتماعي⁽¹⁾.

وعلى هذا تكتسب المقارنة مشروعيتها، فالخطاب الشفاهي على هذا الأساس ألصق بالوعي الجمعي معبرا عن الضمير الجمعي مدافعا عن كيان الجماعة، ولا يرى لنفسه وجودا إلا في كنف الجماعة فينطق بلسان حالها ويدافع عن مواقفها دفاعا مستميتا دون النظرة الموضوعية إلى تلك المواقف كما يصرح شاعر عربي قديم:

وهل أنا من غرية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد⁽²⁾.

أما المعرفة المكتوبة فهي منفصلة عن ذات الكاتب الذي يكون مجردا منها حياديا إزاءها، فالكتابي يتشاكل مع الفردي الذاتي، بينما يتشاكل الشفاهي مع الجماعي الشعبي.

2- هوية الذات الجمعية وهوية الفرد:

ألا يحق لنا بعد ذلك أن نقارن بين الذات الجماعية في تعبيرها عن الهوية، وبين الذات الفردية التي لا تنهل من الثقافة الشعبية وحسب إنما تنهل من رصيدها الخاص.

فقد قدر للخطابات الأدبية الشفاهية أن تكون الوسيلة الوحيدة، التي تمتلكها الجماعة الشعبية من أجل إدراك العالم ونقل المعرفة وتوجيه السلوك، وقد استطاع أن يقوم بهذا الدور عن طريق نظام من التجسيديات ذات الطابع الرمزي المستمدة من التراث الجماعي والمعبرة عن الواقع النفسي والاجتماعي، وذلك عندما قوضت الصدمة الكبرى لثقافتنا بثقافة الآخر المؤسسة الرسمية⁽³⁾ وهكذا

¹ - والتر اونج الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة الكويت ص105

² - البت للشاعر الجاهلي دريد بن الصمة ديوان الحماسة ج1/ص337

³ - عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1998، صص 20، 21

كانت الخطابات الشفاهية أشد صمودا وأقوى استماتة في دفاعها عن الهوية الثقافية للمجتمع في وجه الآخر .

نتتبع أولا الخطابات الشفاهية بنوعيتها السردية والشعري في تعبيرها عن الهوية، ثم نعرض نماذج للأدب المسمى فصيحا أو نخبويا لنرى إن كانت هناك فروق جوهرية.

فالمسرودات الشفاهية والمتمثلة في الحكايات العجيبة والخرافات الرمزية والمغازي عبرت عن الانتماء، عن قيم الجماعة ودافعت عنها دفاعا مستميتا إزاء الغازي الأجنبي مجسدة تلك الثنائيات الضدية بين الكفر والإيمان، الخير والشر، الظلم والعدل، الحق والباطل،....الخ.

وقد لعبت المغازي بصفة خاصة دورا في تغذية الشعور القومي وإسناد معالم الهوية العربية الإسلامية، هذه المعالم التي كانت تأخذ في الاهتزاز، بفعل الواقع الاستعماري للبلاد.

ركزت هذه المغازي على مظاهر وحدة الجماعة الإسلامية إزاء الغازي وأسقطت الخلافات والعصبيات القبلية التي وسمت المغازي المدونة الموروثة عن القرون السابقة⁽¹⁾

أما في الشعر الشفاهي فقد تناول ما يلح على الشاعر إلحاحا مباشرا من واقع مجتمعه وبيئته المحلية والمشاكل المحيطة به في حدود تصوره وإدراكه لأسبابها⁽²⁾.

فحين يطرح الشاعر الشفاهي مسألة الهوية يبدوها في حدود قبيلته، وربما محيطه الجهوي ثم يمضي تدريجيا إلى بطولات قومه في إطار الفخر فيصل إلى التاريخ المشترك الذي يجمعه يقبائل أخرى حتى يكاد يصل إلى التعبير عن الانتماء القومي، وإن بصورة غامضة. وكل ذلك في إطار عرض المفاخر والمآثر.

¹ المرجع نفسه ص 72، 73

² - التلي بن الشيخ منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص 15

يبدأ هذا الشاعر مثلاً بالمآثر التقليدية من شجاعة ومروءة وكرم وبشيد
بالتآلف بين أفراد القبيلة وغوثها المحتاجين وتبسطها في الكرم:

نُجِعَ الْحَجَّاجُ
رَحْلُ شَرَقٍ قَاصِدٌ لِمَرْجٍ
عَنْ بَعْضِهِ عَزَّازُ
عَاتِي وَمَا يَقْبَلُشِي الدَّلَّ
يُجِيهِ الْمُحْتَاجُ
يُجِي فَارَغُ يَدِّي بِلَحْمٍ
رَجَلُ نَجْعِ الْعَطْرَةِ وَنَزَلُ...

فالشاعر بلسان حال القبيلة لا يتجاوزها يشيد بخصالها، وحين يعبر عن
الانتماء إلى القبيلة والقبيلة الكبرى (لرباع) والمنطقة التي سكنها منذ ستة قرون
كما يقول ، وتاريخه في هذه المنطقة مرتبط بالقبائل المسماة في التاريخ قبائل
بني هلال، وما ذلك يعبر عن حسرته ، على ماضيه المجيد بلسان القبائل
العربية وماضي أمثاله من أهل المنطقة.:

شَوْفَ الدُّنْيَا تَدُورُ وَاللَّهِ يَا رَاجِلُ وَمَاذَا مِنْهَا نَاسٌ وَاللَّهِ مَا بَالِي
نَا سُوفِي مِ الْوَادِ غَنَّاوِي وَشَاعِرِ حَجَّاجِي مِ لَزْبَاعِ أَعْمَامِي وَخَوَالِي
اسْهَلْنِي عَ التَّارِيخِ نَا عِنْدِي مَنَزَّلُ وَعِنْدِي سِتَّ قُرُونُ هَذَا مَنَزَالِي
وَكِي نَتَفَكَّرَ حَالَتِي وَاللَّهِ نَهْبَلُ وَمَاذَا مِنْهَا رَجَالُ رَاهِي كِي حَالِي
أَنْتَ بَدْوِي رَحَالُ مَاكِشْ مِ الْمَدُنِ وَاسْهَلْ عَ التَّارِيخِ تَلْقَاهُ هَلَالِي

ونلاحظ أن الشاعر عبر عن انتماء قبلي وإقليمي محلي ، ومع أن
الأقليمية ، كما يقول النلي بن الشيخ ، ليست نقيضا للقومية ولا بديلا عنها، وإنما

هي جزء من الروح القومية ، متم لها ذلك أن هذه الروح الإقليمية ليست عن وعي ولا مناهضة للروح القومية والإنسانية إنما هي ناتجة عن أن الشاعر أسير واقع إقليمي لا يفرق بين الإقليمية والقومية كما يراها الدارسون والشعراء المدرسيون⁽¹⁾.

لهذا نلاحظ في الشواهد السابقة عدم ذكر الانتماء العربي والإسلامي والوطني لأن السياق لا يطلب منه ذلك فليس هناك أغيار لهذا الانتماء، أما حين يتعلق الأمر بالموقف إزاء الآخر المختلف فالأمر مختلف.

فعندما اصطدم المجتمع الجزائري بمحاولات الاستعمار الفرنسي طمس الهوية الثقافية للجزائريين ، قامت النخبة من قادة الإصلاح وناضلت من أجل الدفاع عن عناصر الهوية العربية الإسلامية ، واستجاب لها المواطن البسيط والشاعر الشفاهي على وجه الخصوص في مناطق مختلفة من الوطن يدافعون عن اللغة العربية والدين والتاريخ المشترك. يقول أحدهم:

تحيا الجزائر مجمولة تولى دولة عربية ما فيها لولا
مصالي قايم بطبولة معاه فحوله بعلم أسلامي وهيلولة
جمعية لمه دزرو له وسمعو قوله جزائر حرة مقبولة
ويقول الشاعر نفسه في موضع آخر (الهادي جاب الله).

يا فريقيا خبريني واش قال لسان حالك
ترجعش حرية ديني استقلالنا راس مالك
مضى قرن بعد السنيني حياة الشقا في قدا لك
واليوم حليت عيني وساعت علي المسالك
جزايري تعرفيني في التاريخ لي معارك.

أما حين نعود إلى الكتابة الإبداعية للنخبة ومعالجتها لمسألة الانتماء والعلاقة بالآخر، فإننا نقف على معالجة موضوعية في السرد، محاولة نقد

¹ - التلي بن الشيخ، المرجع السابق، ص16

تصرفات الشباب الجزائري المثقف تجاه ثقافته من جهة وتجاه ثقافة الآخر من جهة أخرى.

ففي رواية مأوى سان دولان للروائي عمر بن قينة، يقف الشاب الجزائري المتعلم من الآخر موقفين على طرفي نقيض؛ فإما متحلل متفسخ منسلخ عن هويته (شخصية عيشة - بولرباح) ، وإما موقف المتزمت الرفض للآخر (عبد الله) والذي يدعي التثبث بالمبادئ لكنه لا يكون صادقا مع نفسه كل الصدق، إذ قد تتعارض بعض هذه المبادئ أحيانا مع مصلحة عاجلة فيضطر لالتماس العذر لنفسه أو الفتوى أو المسوغ الأخلاقي من أجل تحقيق المصلحة ، كما تصور الرواية الشاب الجزائري في الغربة حائرا بين بريق زائف للثقافة الغربية وبين المصير المجهول الذي ينتظره.

أما في الشعر المسمى فصيحاً ونعني به المكتوب بلغة معيارية من قبل النخبة المتعلمة ؛ أي الشعراء الذين تمكن من الكتابة، فإننا نجد اتجاهين يبدوان مختلفين متباعدين، لذلك نبحت فيما إن كان بينهما اختلاف جوهري في معالجة مسألة الانتماء.

3- النخبة واتجاهان في الهوية:

أ-الاتجاه الإصلاحية

أما الاتجاه الأول فالشعر الحديث ذو النزعة الإصلاحية، وهنا نلاحظ أن القاسم المشترك هو التوقع من داخل الثقافة والتمترس بالدين والتفاخر بأمجاد الماضي والحث المباشر على إيقاظ الهمم ودفع النفوس للنهوض. والسبب في ذلك هو الاصطدام بثقافة الآخر التي تفرض من الخارج بالقوة ، وخوف الشاعر الجزائري مثله في ذلك مثل المواطن بصورة عامة على مقومات شخصيته من الذوبان الدين اللغة الثقافة...الخ.

من هنا فليس ثمة فرق بينه وبين الشاعر الشفاهي في كيفية التعبير عن الهوية إلا في درجة الوعي. فكلاهما يشيد بالانتماء ويفخر بالماضي. يقول زكريا:

ملأت هذي العوالم عدلا وسلاما ورحمة وأمانا
وأفاضت على النفوس شعاعا ظل يكسو أرجاءها إيمانا
فأقرت رسالة الله في الأرض وراحت تعلم الإنساناً⁽¹⁾
كما قرر سحنون بأن العنصرين الأساسيين اللذين يحددان انتماء الجزائريين هما اللغة العربية والإسلام، وهما بمثابة الجناحين للطائر فلا بد منهما من أجل النهوض.

فالدين والفصحى هما الأوائل والأواخر
مهما تأخينا وقامت بيننا أقوى الأواصر
وهما جناحانا وهل بسوى الجناح يطير طائر
ولا أرى فرقا كبيرا في الطرح بين بيت سحنون السابق الذكر وقول شاعر شعبي يسوق المعاني نفسها لكن بلغة محكية تتناسب وبساطة الفكرة، فبينما يصوغ الشاعر النخبوي صوره من مخزون ثقافته التراثية (نلاحظ تصوير سحنون للدين والعربية بمثابة طائر يبسط جناحيه) وهي صورة مستهلكة يستمدها الشاعر من رصيده المعرفي بالشعر التراثي، كما أن صورة زكريا التي تصف نور الإيمان بأن شعاع أرسلته رسالة الإسلام صورة لا عمق ولا أصالة فيها، فالفرق بينها وبين صورة الشاعر الشعبي، هي في درجة الالتصاق بالواقع المادي (نتحزموا بالدين يا رجاله في المقطوعة الشعبية الموالية)، وفي التحليق في المجردات من جهة الشاعر الفصيح كما في بيت زكريا السابق الذكر.

الله يصون الحالة نتحزموا بالدين يا رجاله
التعريب لنا والتفرنس لا لا واللي انحرف عن الشريعة يخسر

¹ - اللهب المقدس، ديوان مفدي زكرياء، ص 177

نفخر بيها هي لغة الكتاب من ينفيا
لسان العرب واسع يجلبل بيها فيها معاني كبار لا تنحصر⁽¹⁾
ب - الاتجاه الحداثي:

وأما الاتجاه الثاني فالشعر المعاصر ذو النزعة التجديدية في الأشكال
والمضامين فإن الواقع العربي أملى على الشعراء تذكرا وسخطا من الوضع الذي
آلت إليه هوية المواطن العربي إزاء الآخر.

من ذلك أن أحلام مستغانمي تستبدل الهوية العربية التي كانت لدى
الشفاهيين والإصلاحيين مدعاة للفخر ، بالحلية المسمومة التي لبسها الأمير
الطريد امرؤ القيس بسبب وثوقه بالأجنبي (القيصر) ثم تعلن أن لا أمل في
الفارس الذي تأتي به مراكب الزمن لينقذ الهوية الضائعة.

لا سيف في اليمن
لا فارسا تأتي به مراكب الزمن
والعم والأخوال والجيران تحولوا غلمان
قم غنني يا أيها الأمير من عصور
أبحث في المدائن وأجمع السراب في المداخل
أسأل كل جيفة
أين بنو أسد
لا نبض في قلوبنا
أنتيتكم أسأل عن أحد
لكن فرعون هنا
لا يمنح الحياة للرجال
يا ضيعة الرجال
قم أيها الأمير

¹ - أحمد زغب، الشعر الشعبي الجزائري من الإصلاح إلى الثورة. الهادي جاب الله نموذجاً ص. 76

فعندما تحركت عواطف الجيران

والقيصر البطل

قد هزه التذكار والحنين

أقسم أن يهدي لنا أحدث ما حيك من حلل.⁽¹⁾

فالتاريخ ينساب من بين أيدينا ونحن ننتظر المفاجآت دون أن نحاول تمثيل أحداث التاريخ والاستفادة منها، ونستمر في البكائيات التي تشبه بكائيات أبي البقاء الرندي كلما حلت بنا نكبة جديدة.

وبجانب نزعة التذمر والبكاء ، نجد نزعة أخرى لا تختلف كثيرا عنها لدى الشفاهيين إلا في مستوى التعبير ، وهي الأثنية المركزية التي لا تكتفي بالفخر والإشادة بالذات ، إنما تضيف إليها اعتبار الثقافة العربية الإسلامية معيارا يقاس عليه ما لدى الآخرين ومن ثم تنديده بالآخر لاختلافه عن المعيار، من ذلك تعبير الآخر لاختلافه عن ثقافة الشاعر:

رعي الجمال خير من رعي الخنازير

ونحن رعاة الجمال فمرحى

رعاة أطلوا أضاءوا الو جودا

وهل كان رعي الخنازير إلا

لمن صد دوما صدودا بعيدا⁽²⁾

كما تشيد بالنحن وتصب اللعنات على الآخر كما في آية الحزن المبين للمشري بن خليفة :

وهذه يدي ببيضاء سلسبيل

وأيديهم موت جنون

تبت يداهم

تبت يدا الجرح السليل.

¹ - أحلام مستغانمي ديدان على مرفأ الأيام ص73

² - بوبكر مراد قصة الفارس المستقل ص 11

سيرمهم القلب بحجارة من سجيل⁽¹⁾

وكما في قول المثنوي:

تاج اللغات حروف الله ما ينست

أمة الطهر - حضارة الماء

هم الغزاة - هم المغول حضارة النار عاثت

فالأصل نحن وهذا القول خاتمتي.

خاتمة:

ومجمل القول إن التعبير الشعري عن الهوية عند الكتابيين المعبرين عن ذات فردية، لا يختلف من حيث الجوهر عنه لدى الشفاهيين، المعبرين عن وعي جمعي إلا في مستوى التعبير، كإسقاط صور من التراث على الواقع أو توظيف رموز فنية أما في المضمون، فلا يعدو كونه تباكيا على الماضي المجيد أو تمترسا داخل الإثنية المركزية ورمي الآخر بوابل الشتائم.

المصادر والمراجع:

I- الدواوين والمجموعات الشعرية:

- أبو تمام ديوان الحماسة عالم الكتب بيروت د.ت.

- أحلام مستغانمي على مرافئ الزمن بيروت 1973

- بن خليفة المشري س مجموعة شعرية

- مراد أبواكر قصة الفارس المستقل الوادي 1998

- زكريا مفدي اللهب المقدس .

II- المراجع.

- أونج والتر الشفاهية والكتابية ترجمة حسن البنا عز الدين سلسلة عالم المعرفة الكويت 1994.

¹ - المشري بن خليفة سين مجموعة شعرية ص 26

- بورايو عبد الحميد البطل الملحمي والبطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري. ديوان المطبوعات الجامعية 1998.
- التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري م.و.ك. الجزائر 1990.
- زغب احمد الشعر الشعبي الجزائري من الإصلاح إلى الثورة الوادي 2009.
- سعيد ضاوي مدخل إلى علم اجتماع الأدب دار الفكر العربي بيروت.
- النبهان عبد الإله الهوية القومية مجلة الموقف الدبي اتحاد الكتاب العرب دمشق عدد 346. آب 2004